عِمّانوئيل

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

«ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابناً
وتدعو اسمه "عمانوئيل" أي الله معنا»

«وكان هذا كلّه ليتمّ ما قال الرّبّ على لسان النبيّ: ها إنّ العذراء تحمل فتلد ابناً يسمّونه عمّانوئيل» (متى ١ : ٢٣).

ينفرد الإنجيليّ متى بذكر هذا الاسم الرمزيّ الذي يرد في نبوءة أشعيا (٧: ١٤؛ ٨: ٨ و١٠)، وكان المعني فيها ابن الملك الذي يحمل الرجاء لمملكة يهوذا. تأتي الآية في معرض الحديث عن الحبل البتولي بيسوع. كما يوضّح متى قصده من خلال تفسير الاسم "أي الله معنا". بهذا يعطي متى بعداً مسيحانياً لنبوءة أشعيا. يسوع هو عمّانوئيل، أي الله معنا. من الجدير بالذكر أنّ هذه الآية هي الاستشهاد الأول من العهد القديم في إنجيل متى، كأنّي به يريد أن يعطي بذلك عنوان بشارته بأسرها، حيث أنّه باستطاعتنا قراءة كلّ الإنجيل الأول على ضوء رسالة هذا الاسم. عمّانوئيل، أي الله حاضر بيننا بيسوع المسيح.

كيف ومتى يحضر يسوع بيننا؟

يرجع متى أكثر من مرة في إنجيله إلى الرسالة التي يحملها إسم يسوع "عمّانوئيل". ولكنه يعبّر عنها بشكل واضح في آيتين.

ترد الآية الأولى في سياق كلام يسوع عن الحياة في الكنيسة وعن أهمية الصلاة الجماعية فيقول: «فَحَيثُما اجتَمَعَ اثنانِ أَو ثلاثةٌ بِاسمِي، كُنتُ هُناكَ بَينَهم» (متى ١٨ : ٢٠). "كنت هناك بينهم" يقول يسوع، أي إنّه حاضر بين المسيحيين الذين يجتمعون باسمه، بذلك يكون "عِمّانوئيل" أي الله معنا. من هنا أهميّة الصلاة الجماعية، صلاة الكنيسة. عندما نحتفل بالأسرار وبنوعٍ خاص بالإفخارستيا يكون المسيح معنا. وكلّما اجتمعت الكنيسة للصلاة، يكون المسيح حاضراً فيها.

أمّا الآية الثانية فترد في نهاية الإنجيل حيث يقول القائم من بين الأموات لتلاميذه وهم في حال السجود: «وهاءنذا معَكم طَوالَ الأَيّامِ إِلى نِهايةِ العالَم» (متى ٢٨ : ٢٠). حتى بعد غياب

يسوع عن أنظار التلاميذ، سوف يكون بينهم عندما يبشّرون ويتلمذون ويعمّدون باسم الآب والإبن والروح القدس. يسوع "عِمّانوئيل" يحقّق رسالته بشكل تام بعد القيامة، مانحاً حضوره للكنيسة المرسلة إلى كلّ الأمم. حيث الكنيسة هناك المسيح، حيث المسيح هناك الله.

هذه هي الآية الأخيرة من إنجيل متى، بينما ١٨ : ٢٠ في منتصفه، فيكون بذلك موضوع حضور الله بيننا في مفاصل الإنجيل الأساسية، في البداية والوسط والنهاية، مما يعني أنّ لقب عِمّانوئيل في جوهر رسالة الإنجيل الأول، حتى إنّه باستطاعتنا قراءة كلّ الإنجيل الأول على ضوء هذا الموضوع المسيحانيّ، كما يتضّح من الأمثلة التالية:

بعد تقديس الخبز والخمر في عشاء الفصح ليلة آلامه، قال يسوع للرسل الإثني عشر: «أَقولُ لكم: لَن أَشرَبَ بعدَ الآنَ من عَصيرِ الكَرْمَةِ هذا حتَّى ذلك اليَومِ الَّذي فيهِ أَشرَبُه مَعَكُم جَديداً في مَلكوتِ أَبي» (متى ٢٦ : ٢٩).

"منمنمة" من القرن (١٤) تمثل سجود الملائكة والرعاة والمجوس للرب يسوع

يبعث عشاء الرّبّ الأخير الرجاء الوطيد للاشتراك بالوليمة السماوية، حيث يحيا التلاميذ بمعيّة المسيح، بحضرة الله إلى الأبد. لذلك تعلن الجماعة المسيحية إيمانها بعد كلام التقدّيس في القدّاس هاتفة: «كلّما أكلنا هذا الخبز وشربنا هذي الكأس، نخبر بموتك إلى أن تأتي، يا ربّ».

يعبّر متى عن حضور يسوع بشكل غير مباشر أيضاً، كما في آية تسكين العاصفة: «وَرَكِبَ السَّفينَةَ فَتبِعَه تَلاميذُه. وإذا البَحرُ قَد اضطَرَبَ اضْطِراباً شَديداً حتى كادَت الأَمْواجُ تَغمُرُ السَّفينَةَ. وأَمَّا هوَ فكانَ نائماً. فَدنَوا منه وأَيقَظوهُ وقالوا لَه: يا رَبّ، نجِّنا، لَقَد هَلَكنا.فقالَ لَهم: مالَكم خائفين، يا قَليلي الإيمان؟ ثُمَّ قامَ فَزَجَرَ الرِّياحَ والبَحر، فَحَدَثَ هُدوءٌ تامّ. فتَعَجَّبَ النَّاسُ وقالوا: مَن هذا حتَّى تُطيعَه الرِّياحُ والبَحر؟». (متى ٨ : ٢٣ – ٢٧). المسيح حاضر على سفينة الكنيسة، لذلك لا يجب أن تخاف من الأخطار المحدقة بها لأنّه السيّد الذي يقودها إلى شاطئ الأمان.

في حادثة السُّنْبُل، عندما جاع التلاميذ وقلعوا السُّنْبُل ليأكلوا، بينما كانوا سائرين يوم السبت بين الزروع، قال يسوع للفريسيين: «إنّ ههنا أعظم من الهيكل» (متى ١٢ : ٦).

«ثِقوا. أَنا هو، لا تَخافوا!» هذا ما قاله يسوع لتلاميذه الخائفين في السفينة، عندما رأوه ماشياً على المياه. يسوع حاضر بين التلاميذ، لذلك يدعوهم للثقة به وعدم الخوف (ر. متى ١٤ : ٢٢ – ٣٣).

وهناك كلام يسوع في يوم الدينونة، حيث يعبّر عن حضوره في شخص الجائع والعطشان والغريب والعريان والمريض والسجين (متى ٢٥ : ٣١ – ٤٦).

بهذا يكون متى شديد الاهتمام بموضوع الحضور الإلهي، حضور الله في شخص يسوع وحضور يسوع بين التلاميذ. كلّ الإنجيل يسلّط الضوء على "عمّانوئيل"، الله معنا.

رغم أنّ العهد القديم هو مصدر هذا اللقب، يجدر بنا التنويه عن مفهوم متى لهذا الموضوع بالمقارنة مع العهد القديم.

حضور الله في العهد القديم

يعبّر شعب الله في العهد القديم عن حضور الله في ثلاث مراحل متتالية من تاريخ الخلاص:

أولاً في الظهور الإلهي في سيناء، عندما قطع الرّبّ العهد مع الشعب على يد موسى.

ثانياً في المواعيد المرتبطة بأورشليم، من خلال نسل داود وفي الهيكل.

ثالثاً بقرب الله عامّة من شعبه، خاصة بعد هدم الهيكل والجلاء والعودة إلى الأرض المقدّسة.

يستعمل الكتاب المقدّس عدة كلمات حسية وقريبة من فهم البشر ليعبّر عن هذا الحضور الإلهي المعزّي، مثل "الوجه" و"المجد" و"الاسم" و"المكان" و"السكنى".

نذكر بنوع خاص عبارة "الله معنا أو معكم": «فلا تَخَفْهم، فإِنَّ معَكَ الرَّبَّ إِلهَكَ» (تثنية ٢٠ : ١).

وعندما ترد العبارة بضمير المتكلّم تصبح وعداً إلهياً بهذا الحضور، كما قال الرّبّ ليشوع: «فلا يَقِفُ أَحَدٌ أَمامَكَ طولَ أَيَّامِ حَياتِكَ. كما كُنتُ مع موسى أَكونُ مَعَكَ، لا أُهمِلُكَ ولا أَترُكُكَ.»

رغم رجوعه الكثيف لهذا الموضوع، لا يستعمل متى الكثير من مظاهره اليهودية: لايستبعد فقط ما هو بديهيّ، أي الحضور الإلهي في الحرب، بل أيضاً الحضور في العبادة والطاعة للشريعة.

ولكن ما يلفت النظر هو عدم التكلّم عن النوع الثاني والثالث، رغم أهمية الشريعة في رسالة الإنجيل الأول، ذلك أنّ متى يريد التشديد على الحضور الإلهي في شخص يسوع: ينحصر الحضور الإلهي في شخص يسوع. حيث يسوع هناك الله كما يتبيّن لنا وبشكل مطلق في الإسم المعطى ليسوع: عمّانوئيل (متى ١: ٢٣)، ومن خلال علاقته بجماعة التلاميذ (متى ١٨: ٢٠؛ ٢٨: ٢٠). بحضوره يخلّص يسوع العالم. لذلك ينفرد متى بين كلّ كتّاب العهد الجديد بإعطاء معنى إسم "يسوع": «يا يُوسُفَ ابنَ داود، لا تَخَفْ أَن تَأتيَ بامرَأَتِكَ مَريمَ إلى بَيتِكَ. فإِنَّ الَّذي كُوِّنَ فيها هوَ مِنَ الرُّوحِ القُدُس، وستَلِدُ ابناً فسَمِّه يسوعَ، لأَنَّه هوَ الَّذي يُخَلِّصُ شَعبَه مِن خَطاياهم» (متى ١: ٢١).

"حلم القديس يوسف"
للفنان "فيليب دي شمياني (١٦٣٦)

لماذا هذا التحوّل في موضع الحضور الإلهي؟

مع يسوع لدينا ملء الوحي. قاد الله بتدبيره وعنايته البشر إلى هذا الملء الذي تجلّى بابن الله المتجسّد. رغم التواصل مع تاريخ الخلاص الواحد منذ ابراهيم الخليل وداود الملك إلى ميلاد يسوع، كما يؤكّد لنا متى في بداية الإنجيل، إلّا أنّ يسوع كشف لنا عن وجه الله وأتى بالخلاص لكلّ البشر. وما كان قبله ليس سوى تحضير بحسب تربية إلهية تسير بالبشر ليقبلوا حضوره التامّ بيسوع المسيح. لذلك يكون زمن المجيء تذكيراً بالوعود والنبوءات استعداداً للاحتفال بعيد الميلاد، عيد الحضور الإلهي بيسوع المسيح، تحقيقاً لتاريخ الخلاص.

بعد موت يسوع وقيامته بسنوات عدة، أي في أواخر القرن الأول الميلادي، افترقت الطرق بين اليهودية والكنيسة الأولى التي كانت تبشّر بيسوع المسيح مخلّصاً أوحد.

وبما أنّ الإنجيل الأول موجّه إلى جماعة مسيحية من أصول يهودية، يمكن أن يكون التشديد على الحضور الإلهي في شخص المسيح رسالة خاصة لهذه الجماعة التي كانت في خطر الرجوع إلى التعابير اليهودية للإيمان.

نذكر على سبيل المثال بعض أقوال الرابانيم عن العلاقة بين حضور الله والشريعة:

«يقول رابي حنانيا بن ترادیون: إذا جلس اثنان معاً ولم يكن كلامهم عن التوراة، تكون هذه جلسة سخرية ... ولكن إذا جلس اثنان مع بعض وكان كلامهم حول التوراة، تكون سكنى الله بينهم».

بدل التوراة يقول يسوع في إنجيل متى "أكون بينهم". هذا هو الحضور الذي يخلّص. كما يمكن تفسير كلمة يسوع "إذا اجتمع اثنان باسمي" بمعنى "محبّة بي". بذلك يكون لقاء الجماعة المسيحية في الكنيسة لقاء محبّة مع يسوع الذي لم يترك كنيسته عندما صعد إلى السماء، بل وعدها بحضوره الدائم حتى مجيئه الثاني.

وأخيراً نتساءل هل ينوّه الإنجيل الأول عن ألوهية المسيح من خلال إسم "عمّانوئيل"؟

إذا رجعنا إلى المصدر في نبوءة أشعيا، لا نجد هذا المعنى بالطبع، لأنّ المقصود هو حضور الله من خلال استمرارية نسل داود في مملكة يهوذا. ولكن الإنجيليّ متّى يعطي النبوءة تفسيراً مسيحانياً أكيداً. يكفي أن نذكر ما ورد في المقال السابق عن لقب "المسيح" في إنجيل متى، وما قلناه عن فعل "سجد" والذي يرد في نهاية الإنجيل، حيث يسجد التلاميذ للقائم من بين الأموات.

ومن الجدير بالذكر أنّ متى لا يذكر الوعد بالروح القدس كما يفعل لوقا (٢٤ : ٤٩ وأعمال ١ : ٨) والإنجيليّ يوحنا (٢٠ : ١٩ – ٢٥ وأحاديث الوداع ١٤ – ١٦). يعد القائم من بين الأموات بحضوره الشخصيّ الدائم بين التلاميذ: «وأكون معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم».

وفي الخاتمة

يساعدنا الإنجيلي متى على الاحتفال بالأعياد الميلادية من خلال اسم يسوع "عمّانوئيل".

الميلاد، عيد الأعياد، كما اعتاد أن يقول القدّيس فرنسيس. عيد تجسّد الكلمة، إذا استعملنا كلمات الإنجيل يوحنا. عيد حضور الله الدائم بيننا، إذا عدنا إلى تعليم الإنجيليّ متى. كلّ العهد الجديد يقول لنا هذا الحقيقة الأساسية في إيماننا المسيحيّ.

بماذا نحتفل ولماذا؟

ليكُن عيد الميلاد لقاء حقيقياً بيسوع المسيح، بالطفل الإلهي الذي تحمله وتقدّمه لنا أمّه مريم البتول.

عندما نصلّي معاً في الكنيسة يكون المسيح بيننا.

عندما نساعد الفقير ونقدّم الطعام للجائع والثياب للعريان ونزور المرضى والسجناء، يكون المسيح بيننا.

عندما نعيش التوبة ونشترك بالقدّاس الإلهي، يكون المسيح بيننا.

ليملأنا المسيح من حضوره، عمّانوئيل، لنواجه الأخطار المحدقة بكنائسنا في هذا الشرق الحبيب.

إنّه هنا يثبّت إيماننا ويقود سفينة الكنيسة إلى شاطئ الخلاص. فالميلاد فرح بالحضور الإلهي ولقاء حبّ مع الذي أحبّنا فجاء ليخلّصنا، طفلاً في مغارة بيت لحم، وبشرى سارة بفم الرسل، وخبز حياة على مائدة الكنيسة.